

الفصل السادس

العلوم

الترجمة والتأليف

لم يكن ما وضع في عهد بني أمية من العلوم إلا بذراً نما وأثمر في هذا العصر الذي ثابت فيه العقول من غفلتها، وهبت الفطن من غفوتها. فلقد عني خلفاؤه وعلماءه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها. وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، فإنه أنشأ المدارس للطب والشرعة، واستقدم جرجيس ابن بختيشوع رأس أطباء جنديسابور ونفراً من السريان والفرس والهنود، فترجموا له كتباً في النجوم والطب. وكان من ذلك كتاب السند هند في الفلك، وكتاب إقليدس في الرياضة. ونقل له ابن المقفع بعض كتب الأدب والمنطق. ثم فترت هذه النهضة أيام الهادي والمهدي حتى قواها الرشيد بروح البرامكة، ونشرها في مملكته المتسعة، وضم إيوانه نوابغ العلماء، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر. وكان يجلس العلماء على تباين نحلهم، فكان أطباءه وتراجمته من السريان المسيحيين كآل بختيشوع وآل ماسويه. وقد ترجم في زمنه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحيل⁽¹⁾ والجبر والنبات والحيوان.

ولما أفضت الخلافة إلى المأمون - وهو في العرب كبريكلس في اليونان، وأغسطس في الرومان - استعر أوار هذه النهضة العلمية. فآتم ما بدأ به آباؤه، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم. وتوافد إليه الحكماء والأدباء من كل حذب ونحلة. وأمر سفراءه وعماله في أرمينية وسورية ومصر أن يبعثوا إليه بما يجدون من كتب في تلك الأصقاع؛ فكانت الإبل ترى من آن

(1) عام الحيل فرع من الفلسفة الرياضية يبحث عن نوااميس الحركة والموازنة وتطبيقها وهو ما يسميه الفرنج ميكانيك (Mecanique).

إلى أن داخله بغداد موقرة ظهورها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية. وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من الكتب الفلسفية فبعثوا بها إليه. وجعل من شرائط صلحه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة فلما حصل كل ذلك عنده استخار له خير التراجمة فترجم على خير ما يمكن. فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية وأقبل الخلفاء والناس على تلك العلوم درساً وفهماً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها، ورقوها بالتفصيل والتكميل وأصلحوا خطأ المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم. ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة، وضبطوا قواعد اللسان، ووضعوا علوم البيان، ووقعوا على علمي العروض والقافية. وحذا الملوك في الشرق والغرب حذو العباسيين فشادوا المدارس، وأقاموا المراصد، وشجعوا العلماء، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب واخترعوا ما لا يجهله العالم ولا ينكره التاريخ⁽¹⁾.

ولم تزل سوق العلم نافقة حتى ضعف أمر العرب بتغلب التتر وتسلط الترك فسقطت رغبة الملوك فيه، وانقطعت أسباب الطلب، ودرست المصنفات، وكسدت بضاعة العلم، وظن الناس أن تحصيله سعي باطل، فاقصروا على شرح الكتب واختصارها ولم يعنوا إلا بألفاظها.

فلماذا رأت العلوم أن الشرق قد تجهد لها، وأن الزمان قد أضعف أهلها، لبست ثياب الحداد وسارت قاصدة أوربا عن طريق المغرب والشام، ففتح لها الغرب صدره، وفعل ملوكه بالعلوم العربية ما فعله العرب بالعلوم اليونانية. وأخذ ظل العلوم يتقلص من الشرق ويمتد في الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن!

(1) من ذلك كشفهم قوانين لنقل الأجسام مانعها وجامدها، واختراعهم الساعة الدقاقة كالتي أهداتها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا في عهده. والبندول وبيت الأبرة وهم الذين وضعوا الكيمياء الحقيقية ورقوا علم الجبر وزادوا عليه. وألقوا الأرصاد والأزياج وحسبوا الكسوف والخسوف، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي، ونشروا الأرقام الهندسية وسبقوا إلى صناعة الكاغذ؛ وغير ذلك مما أطال القول فيه مؤرخو الفرنج لا مؤرخو العرب (أنظر تاريخ العرب وحضارتهم لسيدو Sedillot) وكتاب (في أصول الأدب) للزيات طبع القاهرة سنة 1952.

العلوم الأدبية

علم الأدب

كان للأدب في عهد بني أمية ما للعلم في عهد بني العباس من سمو المكانة وفطر العناية لحدثة عهد القوم بالبدواة، وتمدح رجالاتهم باللسن، وحاجتهم إلى فصح اللغة وطرف الشعر في استجلاء⁽¹⁾ غامض الكتاب، واستيضاح غريب السنة، والاستشهاد على ضوابط النحو، واكتساب ملكة اللسان. وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأفواه يحفظ في الصدور وتضرب إلى مظانه أكباد الإبل. فلما بزغ هلال العصر العباسي وخامر العرب داء العجمة واستشرى فساد اللحن، اختص بالحلة إليه والتمس له طائفة من العلماء شهروا بالرواة، كحماد الرواة (156) والخليل ابن أحمد (175)، وخلف الأحمر (180)، وأبي عبيدة (209)، وأبي زيد الأنصاري (215)، والأصمعي (216). كانوا يرودون البادية ويدخلون الأعراب ابتغاء لخبر مستملح، أو شعر مستطرف، أو كلمة غريبة.

وظل الشأن في رواية الأدب للسمع والحفظ، حتى مست الحاجة إلى التدوين لاستعجام العرب واتساع دولتهم. فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون. بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعي؛ ولكن الجاحظ هو أول من ضم شتيت الأدب، واستوعب أطرافه بكتايبه البيان والتبيين والحيوان. ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالمبرد صاحب الكامل، وابن قتيبة صاحب أدب الكاتب، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وأبي علي القالي صاحب الأمالي، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني. هؤلاء هم رجال الأدب ومراجعته، وكتبهم هي موارده ومشارعه.

(1) كان ابن العباس يقول: إذا قرأت من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب. وقال الشافعي: طلبت اللغة والأدب عشرين سنة لا أريد بذلك إلا الاستعانة على الفئة.

الأدباء

الأصمعي

(123 - 216 هـ)

حياته وعلمه

ولد أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (نسبة إلى جده أصمع) سنة 123 هـ في بيت عربي عريق في الكتابة، ونشأ بالبصرة، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها. ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة، وأكثر الخروج إلى البادية، وشافه العرب وساكنهم. وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره وكان معاصراً لأبي عبيدة منافساً له في اللغة والرواية. وقد فاضل أبو نواس بينهما فقال " إن أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين. وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته. وحدث الأصمعي عن نفسه: " حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل ابن الربيع فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت: مجلد واحد. فسأل أبا عبيدة عن كتابه بها فقال خمسون مجلداً؛ فقال له قم إلى هذا الفرس وأمك كل عضو منه وسمه فقال: لست بيطاراً، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب. فقال لي قم يا أصمعي وافعل أنت ذلك. فقممت وأمسكت ناصيته وجعلت أسميه عضواً عضواً، وأنشد ما قالت العرب فيه غلى أن فرغت منه؛ فقال خذه فأخذته. وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه " وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذاكرة الأصمعي وشدة حافظته. فلا بدع إذا قال أنه يحفظ أثنى عشر ألف أرجوزة. وكان الأصمعي مع اشتهاه بالثقة في الرواية والتضلع من اللغة مشهوراً بنقد الشعر أيضاً، أخذ عن خلف الأحمر. وله في الشعر والشعراء آراء عالية. وهو على ظرفه شديد الورع كثير الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة. فإذا سئل عن شيء منهما كان يقول: العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة. وما زال نديماً

للخليفة الرشيد حتى توفي. فلما ولى المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقبع في كسر بيته، وحرص المأمون على أن يصير إليه، فاحتج بكبر سنه وضعفه، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. ورئي بعد ذلك راكباً حماراً دميماً، ف قيل له: "أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال هذا وأملك ديني أحب إلى من ذاك مع فده". وهكذا رضى من العيش بالكفاف حتى توفي سنة 216، وله من العمر تسعون سنة.

مؤلفاته

ترك الأصمعي من المصنفات ما ينيف على اثنين وأربعين مصنفاً أكثرها في اللغة، ككتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الخيل، وكتاب النبات، وكتاب النوادر، وكتاب معاني الشعر، وكتاب الأراجيز، وأغلبها غير مطبوع.

أبو الفرج الأصبهاني

(284 - 356 هـ)

نشأته وحياته

أبو الفرج علي بن الحسين المرواني ولد بأصبهان ونشأ ببغداد. واختلف إلى العلماء والرواة، فسمع الحديث والأخبار، وروى الأنساب والأشعار، وتوسع في النجوم والسير والبيطرة والطب فنبه ذكره وظهر فضله، والشرق تتنازعه دول مختلفة، فاستطاع أن ينقلب بين هؤلاء الخصوم يفيدهم بأدبه، ويمتعمهم بكتبه، ويستفيد من مالهم، ويتقوى بنفوذهم. وما كان عطاء ملوك الشرق ليكفيه، فكان يؤلف الكتب للأمويين بالأندلس سرّاً فينعمون عليه. وكان يجاهر بالتشيع وهو أموي نقية للشيعة ومدارة؛ لأنه في بلادهم نشأ وبفضلهم ظهر.

وكان أكثر الناس حذباً عليه وإيثاراً له، الوزير المهلبى وزير معز الدولة ابن بويه. فانقطع إليه ومدحه ونادمه حتى مات ببغداد سنة 356 هـ وقد خولط قبل موته.

أخلاقه وعلمه

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه، سليط اللسان، مخشى البادرة، تتقيه الملوك والأمراء لعلمه بالأنساب ومثالب البيوتات. وكان قذر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله. والوزير المهلبى على تنطسه وترفه كان يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه. فقد كان كما قدمنا ملماً بأشتات العلوم، راوياً لمختار المنشور والمنظوم، ثقة فيما يحدث، ناقدًا لما يسمع. ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً، ومؤلفاً قديراً، ومصنفًا مجيداً، وراويًا أميناً. وحسبه ميزة وشرفاً كتابه المسمى بالأغانى.

كتاب الأغاني

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف في بابيه مثله، وأن كل كتاب في الأدب كل عليه، لولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني

أمية؛ ألفه في خمسين سنة، وبناه على مائة الصوت التي اختيرت للرشيد وزيدت للوائح، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغاني، فترجم بقائلها ومغنيها، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفكاهة؛ وحمله إلى سيف الدولة ابن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه. وكان الصاحب ابن عباد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً. فلما اقتناه استغنى به عنها وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً في سنة 1285 هـ، ثم عشر أحد المستشرقين على جزء آخر في إحدى مكاتب أوروبا فكملت الأجزاء واحداً وعشرين، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالي فهرساً أبجدياً مطولاً بالفرنسية طبعه في ليدن سنة 1900م ثم نقل هذا الفهرس إلى العربية في مصر وطبع بها هو والكتاب سنة 1322 هـ. وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعة متقنة منقحة بمعونة سرى من سراة المصريين ولم يتم وقد اختصره أبو الفرج في مجلد واحد مع سائر كتبه.

نموذج من شعره

قال يمدح الوزير المهلبى:

ولما انتجعنا لائذين بظله أعان وما عنى ومن وما منا
وردنا عليه مفترين فراشنا وردنا حماه مجدين فأخصبنا
وقال يخاطبه من قصيدة:

فداؤك نفسي، هذا الشتاء علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبي درهم ولا من ثيابي إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهواء وتخرقها خافيات الوهم
فأنت العماد ونحن العفاة وأنت الرئيس ونحن الخدم

علم النحو

جاء هذا العصر والنحو علن يدرس في المساجد ويدون في الكتب، وقد أحكمت روابطه، وحققت ضوابطه، واشبع الكلام فيه علماء المصريين: البصرة والكوفة. وإلى الأولين يرجع الفضل في تكوينه وتدوينه. فمنهم أبو الأسود الدؤلي واضعه، وابن إسحاق الحضرمي معلله، وهارون ابن موسى ضابطه، وعيسى ابن عم أول من ألف فيه، وسيبويه واضع كتابه ومهذب أبوابه. ولم يشغل به الكوفيون إلا بعد ذبوعه بالبصرة وما جاروها: أخذوه عن البصريين وجاورهم في تلقيه وتدوينه، ونافسوه في تحصيله وتفصيله. واشتد الحجاج واللجاج بين الفريقين حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده ويعضده. ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع: فلا يرون القياس إلا في حال تضطرهم، ويتشددون في الرواية، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخالص من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة، وقرنها من عامر البادية. أما الكوفيون فلخلاطهم أهل السود والنبط يعتمدون في أكثر المسائل على القياس، ولا يتخرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم. فأهل البصرة أوسع دراية، وأوثق رواية؛ ولكن العباسيين آثروا الكوفيين عليهم لالتجائهم إليهم، ولقرب الكوفة من بغداد وتشيعهم لني هاشم. فانتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة. ولولا الغرض السياسي ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر. وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تخرب المصران، فجلا علماؤهم إلى بغداد، ونشأ مذهب البغداديين خليطاً من المذهبين، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحو إلى الأندلس. وما ابتدأ القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين، وضعفت أنصار الفتيين، فانقطع النزاع، وانحسم الجدل، وجرى المؤلفون على المذهب البصري فبسطوه وشرحوه واقتصروا من المذهب الكوفي على ذكر الخلاف.

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده، وتشعبت أطرافه، حتى جاء المتأخرون فقصورا ذلك الطول واقتصروا على المبادئ كما فعل ابن مالك في التسهيل، والزمخشري في المفصل. على أن هذا العلم مُني بطائفة

من فلاسفة النحاة وسعوا الجدل فيه، فقلبوا وجوه لألفاظ، وأحيوا موات اللغات، وخلطوا الشاذ بالصحيح، وجاءوا بالتعليلات الباردة والتقديرات الفاسدة والأقوال المتضاربة، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها المخطئ عن قول يبرر به وهمه، وحجة يؤيد بها زعمه.

وها نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهي النحاة عدا من ترجم به منهم في غير هذا الباب، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجناه لأنفسنا في هذا الكتاب.

النحاة

سيبويه

(المتوفى سنة 177 هـ)

نشأته وحياته

ولد إمام البصريين أبو بشر عمرو بن عثمان لملقب بسيبويه (رائحة التفاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة. وكان بدء أمره يطلب الحديث والفقه، حتى كان ذات يوم يستملى على حماد بن سلمة، فأملى عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ليس من أصحابي أحد إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء "، فقال سيبويه: " ليس أبو الدرداء " فصاح به حماد: لحت يا سيبويه؛ إنما هذا استثناء " فقال: " لا جرم لأطلبن علماً لا يلحنني معه أحد " فطلب النحو ولازم الخليل، وأخذ عن يونس وعيسى ابن عمر، حتى حذق هذه الصناعة وأحاط بأصولها وفروعها، ووقف على شاذها ومقيسها. ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصريين ناسباً إلى كل منهم قوله. فجاء كتابه فريداً في فنه، سديداً في منهجه، ليس وراءه مذهب لطالب ولا مساغ لمستفيد. وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف أن اقتصروا في تسميته على " الكتاب " فإذا أطلق هذا اللفظ عند النحاة لا ينصرف إلا إليه. وكان المبرد إذا أراد مريد أن يقرأه عليه يقول له: " هل ركب البحر؟ " تعظيماً له واستصعاباً لما فيه. وقال أبو عثمان المازني: " من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سيبويه فليستح " ولولا هذا الكتاب لخمّل ذكر صاحبه.

ولما آنس سيبويه من نفسه التفوق في النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة؛ والكسائي يومئذ لها يعلم الأمين ابن الرشيد. فجمع بين الرجلين يحيى ابن خالد. فتناظرا في مجلي أعد لذلك. فكان من أسئلة الكسائي لسيبويه قوله. ما تقول في قول العرب " كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها " فقال سيبويه " فإذا هو هي، ولا يجوز النصب " فقال الكسائي "

بل العرب ترفع ذلك وتنصبه " فلما اشتد الخلاف بينهما تحاكما إلى أعرابي خالص اللهجة، فصوب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لأنه معلمه ولأنه كوفي وضلع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء - فأراد الأعرابي على أن يقول بمقالة الكسائي. فلما أحس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصدهم بالسوء إليه غادر بغداد وارتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي بالغاً من العمر أربعين سنة ونيفاً.

الكسائي

(المتوفى سنة 189 هـ)

نشأته وحياته

هو إمام الكوفيين أبو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي. نشأ بالكوفة وأخذ القراءة عن حمزة الزيات، وتميز بقراءة خاصة فعد من القراء السبعة. ولم يكن له يد في الشعر، حتى قيل " ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر " وبلغه الكبر وهو لا يدري من النحو شيئاً؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه من طلاب العربية وقال متأوها من مشي طويل: " لقد عييت! " فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن! " فقال كيف لحت؟ فقالوا له: إن كنت أردت من التعب فقل أعييت. وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عييت " أنف من ذلك التجيه ولأزم معاذاً الهراء والرؤاسي من نحاة الكوفة حتى حصل ما عندها وزار الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله: أني لك هذا العلم؟ فقال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد تهامة. فخرج الكسائي إلى البادية فطاف أحياءها، وسمع فصحاءها، حتى استكمل حظه من الرواية، واستوفى قسطه من اللغة. ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه. ثم أقامه الرشيد مؤدباً لولده الأمين. وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضي محمد ابن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته وبأمرها ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الري وهما بصحبته، فماتا في يوم واحد برئبويه على مقربة من الري فبكاهما وقال: دفنت الفقه والعربية بالري "

مؤلفاته

أنهت إلى الكسائي الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبغداد وألف فيهما نحواً من عشرين كتاباً. منها كتاب معاني القرآن. وكتاب النحو. وكتاب النوادر، وكتاب الهجاء، ورسالة في لحن العامة.

الفراء

(144 - 207 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة. ولزم الكسائي حتى استمد منه وتخرج عليه. وشافه الأعراب وأخذ عنهم. ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها، فامتاز بذلك من أستاذه الكسائي. وكان ميالا إلى مذهب المعتزلة. ويحب النظر في علم الكلام عن غير أن يكون له طبع فيه، فاكسب بذلك ملكه النظام والترتيب، قوة الاستنباط والتعليل، ولا يعرف في الكوفيين من خدم اللغة العربية وغيره. قال أبو العباس ثعلب: (لولا الفراء لما كانت اللغة العربية. لأنه حصلها وضبطها ولولاه لسقطت) وقال أبو بكر الأنباري: (لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهذا الافتخار على جميع الناس).

ولما عظم أمره خرج إلى بغداد فمهد له الكسائي الإقامة بها وخلفه علي درسه بعد موته. فلما ولى المأمون اتصل به ونفق عنده وعهد إليه بتعليم ولديه الأدب. واقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية. وأمر أن تفرد له حجرة من الدار ووكل به جواري وخداماً، وسير إليه الوراقون يكتبون ما يملى حتى صنف كتاب الحدود في ستين. ثم خرج للناس فأملى كتاب المعاني فخرنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا بنسخة كل خمس أوراق بدرهم. فشكا الناس إليه. فلما أبوا إخراج كتابه أخذ يملى كتاباً آخر في المعاني أطول وأوسع فخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم.

وعظم قدر الفراء في الدولة حتى تسابق ولدا المأمون إلى تقديم نعليه إليه حينما يهيم بالخروج، ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً. وبلغ المأمون ذلك فاستدعاه وقال له: "من أعز الناس؟" فقال "ما أعرف أعز من أمير المؤمنين" قال: "بلى، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين" فقال: "يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكني

خشيت أن أدفعهما عن مكرمه سبقا إليها، أو أكسر نفسيهما عن شريفة حرص عليها؛ فقال له المأمون: " لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً. وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبين من جوهرهما. وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه ووالديه ومعلمه " .

وللفراء مؤلفات كثيرة كان يملئها على تلاميذه دون كتاب لقوة حافظته. وكان أكثر مقامه في بغداد، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفي سنة 207 هجرية.

ابن الحاجب

(المتوفى سنة 646 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر. وكان أبوه كردياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسك الصلاحي فقدم القاهرة صغيراً واشتغل بالقرآن حتى حفظه، وتفقّه في الدين على مذهب الإمام مالك. وتلقى القراءات وشارك في سائر العلوم، وغلب عليه علم العربية. ورحل إلى دمشق فقرأ بجامعة أمالي في النحو على مواضع من المفصل والكافية. ثم عاد إلى الإسكندرية فقضى بها نحبه سنة 646 هـ.

مؤلفاته

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية في النحو، وكتاب المقصد الجليل في علم الخليل في العروض، والأمالي النحوية، ومنتهى السؤل والأمل، في علم الأصول والجدل، وهو مطول على مذهب الإمام مالك اختصره في كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب، وكتاب جامع الأمهات في الفقه.

علم الفقه

فسدت ملكة اللسان في الحركات فاستنبط العلماء قوانين لضبطها فما أغنت عن اللغة وما بطأت باللحن. بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ واستعمالها، ففزعوا في حفظهما إلى الكتابة والتدوين ضناً بكتاب الله ولسان العرب على الجهالة والدروس. بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة في الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان أو الجمل أو الخيل أو النبات. فلما جاء الخليل ابن أحمد مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (العين)، فإنه أحصى ما يتركب من حروف المعجم من الشائي والثلاثي والرباعي والخماسي بمتولية حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل، ورتبه على مخارج الحروف من الحلق فاللسان فالأسنان فالشففتين، وبدأه بحروف العلة. وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفي سنة 279 لهشام المؤيد بالأندلس، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله ومضى على معجم الليل أكثر من قرن لم يدون في اللغة غيره، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فاستمد منه ومن غيره كتاب الجمهرة ورتبه على حروف المعجم، وتلاه الأزهري فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل. ثم وضع الجوهري من المشرقين كتاب الصحاح، وابن سيده من الأندلسيين كتاب المحكم، وابن فارس كتاب المجمل. وتلك هي أصول المعجمات وأسسها. أما غيرها من العباب والتكملة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهي جمع لها أو اختصار منها.

ومما يجمل التنبيه إليه والثناء عليه كتاب فقه اللغة للثعالبي المتوفى سنة 429 فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال، وجمع به المعاني المترادفة والمتقاربة في باب واحد، مبيناً ما بينهما من فروق وما نالها من تدرج أو تفرع؛ وكتاب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة 538، فإنه بين ما تجوزت به العرب من الألفاظ والمدلولات. وإنك لتجد في هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة، والفحص عن أسرار العربية، ما لا غنية عنه لكاتب، ولا غاية بعده لطالب.

اللغويون

الخليل بن أحمد

(100 - 174 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي بالبصرة ونشأ بها؛ وأخذ النحو والقراءات والحديث عن أئمة العربية وعلية الرواة كأبي عمرو ابن العلاء وعيسى ابن عمر. ثم أبدى فسمع الفصح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ غيره. وأخذ عن سيبويه وعن نفر من الأئمة كالنضر ابن شميل ومؤرج السدوسي. وبقي بالبصرة مقيماً طول حياته على فاقة وتقشف، نزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة، وتجافياً بها عن مطارح الهوان؛ حتى قيل إن سليمان ابن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً قفاراً وقال له: "كل، فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان" وأنكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبته نفسه في سبيله. فقد روى أنه قال: أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يظلمها. فدخل المسجد وهو يعمل فكره، فاصطدم في سارية صدمة شديدة ارتج منها مخه رجة أودت بحياته.

علمه وعمله

كان الخليل غاية في تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسائله؛ وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه. وكان عل معرفة بالموسيقى: وضع أول كتاب فيها على غير إمام بلغة أجنبية ولا علم بآلة موسيقية. وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتقطيع في الأجزاء من الشبه؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر، وحصرها في دوائرها الخمس ووقعها على المقاطع والحركات. وشغل بذلك نفسه

ووقته حتى كان يقضي الساعات في حجرته يوقع بأصابعه ويحركها. فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خيال، فقال له الخليل:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتكما

لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكما

والخليل أول من ضبط اللغة، وابتكر المعجمات، ووضع للخط هذا الشكل المستعمل.

مؤلفاته

ألف كتاب العين في خراسان وسماه بأول لفظ منه كعادة السلف ووافته المنية دون إتمامه، فقصد إلى ذلك بعض تلاميذه فقصر عنه، فجاء الكتاب مضطرباً مختلاً وله غيره كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل، وكتاب الإيقاع.

ابن دريد

(223 - 321 هـ)

نشأته وحياته

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة ونشأ لها وأخذ العلم عن علمائها كالرياشي والسجستاني، ثم غادرها في فتنة الزنج إلى عمان، فأقام بها اثنتا عشرة سنة يأخذ اللغة والشعر عن الأعراب. ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً الشاه ابن ميكال ووالده، وهما يومئذ على عمالة فارس، وألف لهما كتاب الجمهرة في اللغة، وامتداحهما بالمقصورة، فقلدها الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه. ولما عزل ربنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عام 380 فاحتفى به الوزير على ابن الفرات وأفضل عليه. وعلم الخليفة المقتدر به وبمكانه من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شهر كفته مؤونة السعي. فانقطع إلى العلم والأدب، وعطف على التأليف، حتى أصيب بالفالج فمات سنة 321.

أخلاقه وعلمه

كان ابن دريد مولعاً بآلات الطرب. مدمناً للخمر، مفيداً للمال، مبيداً له في اللهو والهبات، حتى أن سائلاً سأله شيئاً فلم يجد ما يعطيه إياه إلا دن نبيذ. فأنكر عليه غلامه ن يتصدق به فقال: ليس عندي سواه. وقرأ قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] ثم اتفق أن أهدي إليه بعد ذلك عشرة دنان، فقال لغلامه: الحسنة بعشر أمثالها. أخرجنا دنأ فجاءت عشرة.

وقد نبغ ابن دريد في اللغة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل ابن أحمد. وبرع في الشعر حتى قيل فيه: إنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء. وقد وضع على العرب أربعمئة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية، وتوخي فيها جمال الإنشاء، فدل بها على قوة طبعه في الكتابة وهي منشورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها مما يروي عنه من الأخبار والنوادر. ويظن أنها

كانت الملهم الأول لابتداع فن المقامات، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقريحة سخية، خيره مقصورته، وهي تسعة وعشرون ومائتا بيت، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم: وقد شرحها كثير من العلماء، وعارضها غير واحد من الشعراء: يقول في مطلعها:

إمّا ترى رأسي حاكي لونه طُرةٌ صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضا
ومنها:

الناس كالنبت فمنه رائق غصن نضير عوده مر الجنى
ومنه ما تقتحم العين، فإن ذقت جناه انساغ عذبا في اللها
والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عني
وللفتى من ماله ما قدمت يده قبل موته لا ما اقتفى
وإنما المرء حديث بعده فكُن حديثاً حسناً لمن وعى
واللوم للحر مقيم رادع والعبد لا يردعه إلا العصا
وأفة العقل الهوى، فمن علا على هواه عقله فقد نجا
كم من أخ مسخوطة أخلاقه أصفيته الود لخلق مرتضى
إذا بلوت السيف محموداً فلا تدممه يوماً أن تراه قد نبا

مؤلفاته

له غير المقصورة كتاب الجمهرة في اللغة، وكتاب الاشتقاق في أسماء القبائل والعمائر وشعرائها وفرسانها، وكتاب السحاب والغيث، وأخبار الرواة وغير ذلك.

علوم البيان

الغالب في الظن أن أول من تكلم في علم البيان أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن عقب أن سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصافات: 65] فأجاب بأنه كقول امرئ القيس:

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقٍ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وانقضى العصر العباسي الأول ولم يدون في علم المعاني إلا ما أثر عن فحول الكتاب في حد البلاغة جواباً لسؤال أو عرضاً في مقال، حتى جاء الجاحظ فألم ببعض أغراضه في كتابه البيان والتبيين. وحذا حذوه قدامة الكاتب وأبو بكر ابن دريد وأبو هلال العسكري؛ إلا أن هؤلاء وإن تكلموا فيه فليسوا واضعيه لقصور كتابتهم وعموم عبارتهم. وإنما يعرف الفضل في وضع هذا الفن للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471، وللإمام أبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة 626: ذلك اخترع مباحثه وقعد قواعده، وهذا مخض زبدته وماز المعاني من البيان فجعلهما علمين مستقلين.

أما علم البديع فأول من ألف فيه عبد الله ابن المعتز. جمع منه سبع عشر نوعاً ووقع معاصره قدامة ابن جعفر على عشرين توارده معه على سبعة منها. ثم اقتفاهما الناس بالاستخراج حتى بلغت الأنواع في خزانة الأدب لابن حجة الحموي المتوفى سنة 837 اثنين وأربعين ومائة نوعاً!

ولا تزال هذه الفنون بعيدة عن الكمال لنشوئها عند استضعاف العرب واستعجام اللغة. والمشاركة أقوم عليها من المغاربة، لعناية العجم بها وبعد نظرهم فيها. ولم يعن المغاربة إلا بالبديع لسهولة مأخذه فألحقوه بفنون الشعر وفرعوا ألقابه وعددوا أبوابه.

التاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب في مستهل هذا العصر. وكان يومئذ مقصوراً على ما يقتضيه الدين من فروعه " كالمغازي " للوقوف على الأزمنة والأمكنة التي نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث. " والطبقات " للتعريف برواة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين. والعرب أسبق الأمم كافة إلى هذا النوع من التاريخ. " والأنساب " لتمييز أشرف القرشيين وسادات القبائل، فتعلم مراتبهم، وتقدر روايتهم. " وأيام العرب " لتفهم أغراض الشعر بمعرفة أسبابه. واشتهر الكاتبين في هذه الأنواع على الترتيب ابن إسحاق المتوفى سنة 151، والواقدي المتوفى سنة 207، وابن سعد المتوفى سنة 230، والكلبي المتوفى سنة 206، والأصمعي المتوفى سنة 216.

فلما وقف العرب على ما ترجم من تواريخ الأمم، وانقضت الحاجة إلى التاريخ الخاص بانقضاء أسبابه، خطوا في التاريخ خطوة واسعة، واختلطوا فيه خطة جامعة. فكتب عمدة المؤرخين محمد ابن جرير الطبري المتوفى سنة 310 تاريخه العام مرتبة حوادثه على السنين فنهج المؤرخون طريقته في التصنيف. وفضلوه بما أدخلوه في كتبهم بعد من المباحث العلمية والأدبية كأبي زيد البلخي⁽¹⁾. صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة 222، والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة 346، وابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة 385 وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة 421. ثم عنى المؤرخون بتذليل كتب التاريخ المدونة عن التأليف فيه. فتعاقب جماعة منهم على الطبري بالتذليل والتكميل حتى مدوه إلى سنة 616. وجاء خاتمة مؤرخي هذا العصر أبو الحسن علي ابن الأثير⁽²⁾ ففصل كتابه الكامل من الطبري وأضافه إلى سنة 637 هـ.

(1) كان المعروف أن أبا زيد البلخي هو صاحب هذا المتاب، ولكن الأستاذ كليمان هيار المستشرق الفرنسي الذي طبعه عن نسخة مخطوطة فذة جلبها من مكتبة بالآستانة، وترجمه إلى اللغة الفرنسية أثبت بعد طبعه الجزء الأول منه أنه للعطهر ابن طاهر لمقدسي المقيم ببست من أعمال سجستان، لقرائن وجبهة وأدلة قوية، ذكرها في مقدمة الجزء الثاني والثالث من الكتاب.

(2) ابن الأثير هو عز الدين أبو الحسن علي ابن محمد الشيباني ولد سنة 555 بجزيرة ابن عمر بالجزيرة. ورحل هو وأخواه صاحب النهاية في غريب الحديث، وضيء الدين صاحب المثل السائر مع

مذهب العرب في التاريخ

للعرب في كتابة التاريخ طريقتان: إما أن يسردوا السنين وما وقع فيها من الحوادث في أي مكان مسندة من غير اتصال ولا رابطة، كما فعل ابن جرير الطبري وابن الأثير الجزري وأبو الفداء. وتلك الطريقة على إضجارها القارئ هي الأصلية عندهم كما يؤخذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ: أي التوقيت. خلافاً لتسمية اليونان إياه بالحكاية أو القصة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط بديع. وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول كما فعل المسعودي وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري.

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن، ولم يوفقوا إلى إتقانه، لقلة الوسائل عندهم، وتأثير الحاكمين فيهم، فجانبوا سبيل النقد محابة للخلفاء ومهاوأة للملوك، وكالوا الحوادث جزافاً دون تحقق من صوابها، ولا نظر في أسبابها وأعقابها، وأمسكوا عن الخوض في أحوال الأمة الاقتصادية والاجتماعية والأدبية، قانعين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة والوفاء، وفاتهم أن تطور الأحوال وتغير الميول في طبقات الأمة له أثر عظيم في سياستها. وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه العيوب.

على أن لمؤرخينا العذر في هذا القصور، فإن فن التاريخ لا يتسنى إتقانه إلا بتوفير وسائله واستكمال علومه: كعلم المسكوكات، وعلم السجلات، وعلم العاديات وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء، وعلم النقد، وجهل العرب بهذه العلوم كلها أو جلها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث، وعاقهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث.

أبيهم إلى الموصل فتخرجوا على علمائها: وطاف هو في بعض بلاد الشرق طلباً للجاه وتحصيلاً للعلم. ثم انقطع في الموصل إلى الدرس والتأليف فوضع كتابه في التاريخ وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) وتوفي سنة 630.

العلوم الشرعية

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه. فأمر مالك ابن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعاً بين الحديث والفقه. ثم تبارى العلماء في تحصيل الحديث توسعاً في الفقه، وتذرعاً إني الفضل، فراجت بضاعته، وانتشرت روايته. وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من أتباع الضلالة وأشياء الفرق فتقولوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال الرواة فكثرت المفتریات وعمى على الناس الحق. فشمّر لأئمة الحديث بالنقد والتمحيص، وللرواة بالجرح والتعديل. وكان أسبقهم إلى ذلك إسحاق ابن راهويه المتوفى سنة 238 فمأز الحديث من الفقه. وتلاه شيخ الحديث البخاري، وإمام السنة مسلم، فجمعوا الأحاديث في كتابيهما. ثم ظهر بعدهما أربعة كتب في عصر واحد تمت بها الستة الصحاح. وهي كتاب أبي عيسى الترمذي 279، وكتاب أبي داود والسجستاني 275، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي 275، وكتاب أبي عبد الله ابن ماجة 273.

وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشغلوا بها ما بين جمع وشرح وتلخيص. وكل كتاب بعدها كل عليها وراجع إليها.

المحدثون

البخاري

(194 - 256 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري ببخاري ونشأ بها يتيمًا. فحفظ القرآن وثقف العربية وطلب الحديث في التاسعة من عمره. ولم يكد يبلغ الحلم حتى حفظ منه عشرات الألوف. وفي سنة 211 خرج إلى مكة حاجاً مع أمه وأخيه. فعاد هذان وتخلف هو للتوسع في الحديث فرحل إلى معظم الممالك الشرقية وروى عن علمائها وأخذ عن فقهاء حتى أرجعه الجد العائر إلى بلاده فابتلى فيها بفتنة القول بخلق القرآن، فأفتى بأنه قديم غير مخلوق، فأخرج من بخاري مطروداً، فلاقته المنية بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند.

جمع كتابه " الجامع الصحيح " في ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف حديث تنخلها من ستمائة ألف. وفيها ثلاثة آلاف مكررة بتكرار وجوهها. وقد أجمع العلماء على أنه أصح كتاب في الحديث حتى من " صحيح مسلم ":

مسلم بن الحجاج

(206 - 261 هـ)

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. ولد سنة 206 ورحل في طلب الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر. وقدم بغداد غير مرة، وأخذ عن البخاري وصادقه ودافع عنه. وروى عن ابن حنبل وابن راهويه، وجمع صحيحه من ثلاثمائة ألف حديث. وهو ثاني صحيح البخاري في الصحة والمكانة... ثم ألقى عصا الرحيل بنيسابور، وعاش بها وادعاً في ظل ثروته وربح تجارتته حتى لقي ربه.

علم الفقه

في صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم وفي عصر بني العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه. وكانت المدين حيثنذ عش الفقهاء ومقر المحدثين وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث. فلما استقر ملك العباسيين في العراق انتشر الفقه بين أهله، ونبغ فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين في التشريع. فقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم في الحديث بنوا أحكامهم على النصوص، فلا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً. وهم أهل الحديث وزعيمهم مالك ابن أنس. وفقهاء العراق لتشدهم في الرواية، وقلة بضاعتهم من السنة، وتأثير الجنسية الآرية فيهم، عمدوا إلى القياس في استنباط الفقه. وهم أصحاب الرأي وزعيمهم أبو حنيفة النعمان. واقتضت سياسة المنصور أن يظهر العراق على الحجاز، وبغداد على المدينة، والفرس على العرب، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك. واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والأندلس. ثم جاء محمد ابن إدريس الشافعي وهو أحد أتباع مالك، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذهبيين. وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه، فوضعه وضعاً جديداً ونشره بها. ثم نبغ من بعده أحمد ابن حنبل فقبس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية، واختص بمذهب آخر انتشر في بلاد نجد والبحرين تقيد فيه بالسنة وتشدد في الفروع.

وهذه هي المذاهب الربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقفت عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائر الأمصار.

الفقهاء

أبو حنيفة النعمان

(80 - 150 هـ)

نشأته وحياته

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة، وأصل أبيه من فرس كابل. كان أول أمره خزازاً، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها ممن شافه الصحابة ونقل عنهم. واشتهر بالنبوغ فيها حتى أراد المنصور على أن يلي القضاء فأبى وقال: " اتق الله ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟ " فقال له المنصور: كذبت! أنت تصلح. فقال له: قد حكمت لي على نفسك. كيف يحل لك أن تولي قاضياً على أمانتك وهو كذاب؟.

فلم يقتنع المنصور وألقاه في السجن فلبث فيه حتى قبضه الله إليه. والراجح أن هذا سبب مفتعل، وما سجنه المنصور إلا لميله إلى العلويين.

صفته وأخلاقه

كان أبو حنيفة ربعة في الرجال تعلوه سمرة، وكان من أحلى الناس نغمة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً. وكان كثير الخشوع، طويل الصمت، قليل الدعوى، بعيداً عن الغيبة، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً.

علمه وأدبه

كان راسخ القدم في علوم عصره إلا العربية، فقد كان يرتضخ لكثرة أعجمية ولا يقيم لسانه لحناً. وكان قوي الحجة حتى قال عنه الإمام مالك: "إنه رجل لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته " وهو أول من بوب الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأي لكثرة الوضاعين من زنادقة العراق، وحرصه على ألا يأخذ بالشك في دينه. فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً. تخرج عليه فقهاء العراق والكوفة القاضي أبو يوسف (182)

ومحمد ابن الحسن (189) وزفر ابن الهذيل (158) وغيرهم. وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر في أصول الدين، وكتاب المخارج في الحيل، ووصيته لأصحابه في الأصول.

مالك بن أنس

(95 - 179 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو عبد الله مالك ابن أنس الأصبحي بالمدينة ونشأ بها، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي (126) وتعمق في علوم الدين حتى صار حجة في الحديث وإماماً في الفقه. قيل إنه أفتى بخلع المنصور ومبايعه محمد ابن عبد الله من آل علي، فأحفظ ذلك جعفر ابن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فجرده وضربه سبعين سوطاً فما ازداد إلا علاء وشرفاً. وما عثم المنصور أن أعذر إليه وترضاه وقال له " لم يبق في الناس أفقه مني ومنك. وقد شغلتنى الخلافة، فضع للناس كتابا ينتفعون به وتجنب رخص ابن عباس وشدائد ابن عمرو وشواذ ابن مسعود ووطئه للناس توطئة " فصنف الموطأ. سمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة 174 وظهرها عليه ثوب النعمة. وبقي مشرقاً لنور العلم، وقبله لرواة الحديث، وعمدة للفتوى حتى أتاه اليقين بالمدينة.

صفته وأخلاقه

كان مالك أشقر شديد البياض، أصلع كبير الرأس، حسن البزة وقوراً مهيباً عفيفاً لا يحدث إلا على وضوء، ولا يركب دابة في دار الهجرة على ضعفه. وكان أميناً على العلم فلا يرفع أن يقول في الشيء لا يعلمه: (لا أدري).

علمه وفضله

كان مالك من حجج الله على خلقه. لا يحدث إلا عن صحة، ولا يروي إلا عن ثقة. قد توفر حفظه من السنة فبنى مذهبه عليها وانفسح ذرعه في الفقه فانتهت إليه الفتوى. وهو القائل عن نفسه: " قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئني ويستفتيني " وبذلك سار المثل. " لا يفتى ومالك في المدينة ". له كتاب الموطأ في الحديث وهو أساس المذهب المالكي، ورسالة في موعظة الرشيد.

محمد الشافعي

(150 - 204 هـ)

نشأته وحياته

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي الشافعي نسبة إلى جد جده. ولد بغزة في فلسطين على مهد الفقر، ونقل بعد عامين إلى مكة، فنشأ في بني هذيل ودرج بينهم، وكانت أمه الأيم تعوله مستعينة ببر ذوي قرابته من قريش. وما كاد يناهز الإدراك حتى أندر في الذكاء والحفظ. قرأ القرآن ودرس العربية وراى البادية في طلب اللغة والأدب، وحفظ الموطأ وما أربى عمره على خمس عشرة سنة. ثم رحل في هذه السن إلى مالك فقراً عليه الموطأ حفظاً. فقال مالك: "إن أحد يفلح فهذا الغلام"، وفي سنة 195 وفد إلى بغداد فالتف حوله علماءها يأخذون عنه، وفيهم أحمد ابن حنبل، ولقى محمد ابن الحسن فبصره بالقياس. ثم دخل مصر عام 199 فاتخذها دار إقامته، وسكن الفسطاط وأملى بجامع عمرو مذهبه الجديد: وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى اصطفاه الله لجواره فدفن بالقاهرة.

صفته وأخلاقه

كان رضي الله عنه طويلاً نحيلًا، خفيف العارضين، حسن الصوت، والسمت، فصيح المنطق، راجح العقل قوي الحجة، ثقة في دينه كريماً في خلقه.

علمه وفضله

كان افقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله، وأبصرهم بأصول العلم والفقه، وحجة في اللغة، وآية في النساب والأخبار. وقد بلغ من المكانة في الأدب والداية في اللغة أن قرأ عليه الأصمعي أشعار الهذليين. وقال أحمد بن حنبل: "ما أحد يحمل محبرة إلا وللشافعي عليه منة".

توسط في مذهبه بين أهل الرأي وأهل السنة. وكثر أشياعه في الأمصار فقاسموا الحنفية مناصب التدريس والفتوى. وشجر الخلاف بين أتباعه

المذهبيين، وتعددت المناظرات، حتى نشأ من ذلك على الخلاف والجدل. والراجح أن الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وصنف فيه. وقد ذكر له صاحب الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس في أيدي الناس منها إلا كتاب الأم في الفقه في سبعة مجلدات، والرسالة في أصول الفقه، ومسند الشافعي في الحديث.

أحمد بن حنبل

(164 - 241 هـ)

نشأته وحياته

أبو عبد الله ابن حنبل الشيباني، ولد ببغداد، ونشأ بها يتيماً. وطلب الحديث لست عشرة سنة، وقد كثرت روايته، وعرفت ثقافته، وتميز صحيحه، فجاب الأقطار الإسلامية في سبيل تلقيه وجمعه، حتى ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيفاً فدونها في كتابه المسند. وهو من أصحاب الشافعي وصفوة تلاميذه، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر: "خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل".

استنبط مذهبه من الكتاب والسنة وشابه شيء من القياس، فقل أتباعه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية. وتصدى هو وشيعته لمجادلة المتكلمين ومناضلة الفلاسفة في عصر الرشيد والمأمون. ودعي إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فأبى، فضرب تسعة وعشرين سوطاً حتى تقطر دمه وغاب رشده واعتل جسمه. ولم ينعم باله إلا في عهد المتوكل نصير السنة. وعاش ما عاش حتى نقله الله إلى در كرامته فشيعة ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة. وكفى بذلك شهيداً على رفعة شأنه وعظم خطره.

العلوم العقلية

الفلسفة

كانت حرية الفكر في الإسلام سبباً في تعدد الفرق وظهور المعتزلة. وهم يذهبون إلى تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية. وبنو العباس كما علمت أميل إلى القياس والرأي. فاستفاض فيهم هذا المذهب. وانضوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن. وضرر نار الجدل بين السنة والاعتزال، وزين له أن يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه، فهب بترجمة الفلسفة وأنضى الركائب في طلبها، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها: فنشأ من ذلك على الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية.

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامي، وحادث من تاريخ التمدن العربي، فكان عدد الفلاسفة قليلاً، وأثرهم في الشرق ضئيلاً، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومناراً لأوروبا العائمة يومئذ في غياهب الجهالة، التائهة في مجاهل القرون الوسطى، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية.

اتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحاً يقارعون به أهل السنة، وأنجى هؤلاء بالظعن عليهم وعليها، وحذروا الناس منهم ومنها، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والفيلسوف غرضاً للمقت والسخرية. كان ذلك سرّاً في عهد المأمون والمعتصم والواثق نصراء الفلسفة وظهواء الحكمة، وجهرّاً في عهد المتوكل وأخلاقه محيي السنة ومميتي البدعة فإنهم خفضوا من إشراف الفلاسفة وشدو من شكاتهم، وألجئوهم إلى التستر وعقد المجامع خفية: فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهي أشبه بجماعة "الماسون" في رسومها ورموزها. تألفت بالبصرة في أواسط القرن الرابع للبحث في ضروب الفلسفة، والعمل على نشرها، فكتبوا خمسين رسالة غفلاً ضمنوها جملة الفلسفة العربية، وزبدة الحكمة اليونانية. وقد بعثت في الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيوع. ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد

(343) وهم شيعيون، ونصرتهم في خذلان السنين، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع، أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدثور.

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق. انتقلت إليها زمن عبد الرحمن الأوسط (238) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه. فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وانصرفهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحكم عمرو الكرمانى سنة 458 فنبغ منهم الفلاسفة وكثر فيهم الحكماء. ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، وزرايتهم عليهم كانت أشد: فاستبد الملوك بهم مسaire للشعب، وتحبباً إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم، فإذا زل أحدهم في كلمة رجموه أو أحرقوه. وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدى بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتحريق كتبهم.

وهكذا ظل ولاية الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها حتى فرت من وجوههم لائذة بجيرانهم الفرنجة. ولا بدع فللعلم وأهلها دول تدول وسلطان يزول.

الفلاسفة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقوب ابن إسحاق الكندي المتوفى سنة (246) وكان معاصراً للمأمون بارعاً في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان. وألف في تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتي كتاب حذا فيها حذو أرسطو. وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية. ويليه أبو نصر الفارابي المتوفى سنة (239) الملقب بالمعلم الثاني صاحب كتاب السياسة المدنية، ومخترع القانون في الموسيقى. ثم أبو علي ابن سينا وأبو حامد الغزالي. وأما في الأندلس فقد نبغ فيها أبو بكر ابن باجة المتوفى سنة (532) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفى سنة (581) صاحب رسالة حي ابن يقظان. ويحسبنا أن نترجم بثلاثة من أعلامهم.

ابن سينا

(370 - 428 هـ)

نشأته وحياته

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) ولد بقرية من قرى بخاري كان أبوه عاملاً عليها لنوح ابن منصور الساماني. ثم انتقل في طفولته إلى بخاري فحفظ القرآن والأدب وشيئاً من مبادئ العلوم. وورد بخاري إذ ذاك أبو عبد الله الناتلي فاقرأه كتاب إيساغوجي، وخرجه في المنطق فبرز عليه فيه، وبصره بمواضع منه. ثم رغب في علم الطب فتلقى أصوله على أبي سهل المسبجي، ودرس فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه. فقصده الأطباء من كل صوب يستشيرونه ويقتبسون منه. كل ذلك وسنه على ما قيل لم تجاوز ست عشرة سنة. ثم أبرأ الأمير نوح ابن منصور الساماني من مرض برح به، فقرر به إليه وأذن له في الدخول إلى دار كتبه، فقرأ فيها أثمن الكتب وأجلها. ثم اتفق أن أحرقت تلك المكتبية فتفرد أبو علي بما فيها. ويقال إنه أحرقها لذلك عمداً.

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبوه فخرج إلى قصبة خوارزم وأخذ يضرب في الأرض، فوفد على جرجان وزاول التعليم وصنف كتاب القانون في الطب. ثم انقلب إلى همذان فتقلد الوزارة لشمس الدولة ابن بويه، فما لبث غير قليل حتى ثار عليه الجند ونبوا ماله وسألوا الأمير قتله فاكتفى بنفيه. ولم تهدأ المصائب بعد ذلك فاتهم عند تاج الدولة بخيانة منكرا فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجه إلى فراره متنكراً إلى علاء الدولة بأصبهان، فأقام في حماه وادع النفس أحياناً؛ ولكن تعاقب الحوادث عليه أوهن عزمه، واستبداد الشهوة أنهك جسمه، فأصيب بداء عياء نكل عنه تدبيره وطبه، وتوفي بهمذان.

علمه ومصنفاته

لابن سين القدم الراسخة في الطب والمكانة السامية في الفلسفة. أخذ بمبادئ أرسطو ولم يفتن عن دينه، ولم يشك بعد يقينه. إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً. وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تأليفه إلى اللاتينية واعتمدوا عليها في بناء الفلسفة الحديثة وهي تبلغ مائة مؤلف، وأشهرها كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الحكمة، يقع الأول في أربعة عشر مجلداً، والثاني في ثمانية عشر.

حجة الإسلام الغزالي

(450 - 505 هـ)

نشأته وحياته

ولد أبو حامد محمد بن حامد الغزالي بطوس، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج في أمد يسير على إمام الحرمين أبي المعالي، ولازمه حتى توفي. فوفد على الوزير نظام الملك بالعسكر فاحتفى بقدمه وأعجب بعلومه. وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره. ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فاشتغل بها وهو يعلم. ثم انقطع عن التدريس سنة 488 ليتخصص لها ويتعمق فيها. فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والذين ضدان: فناصب الفلاسفة العداء وحمل عليهم بأسلحتهم، وقارعهم بحججهم. فلقلب لذلك حجة الإسلام. ثم سلك طريق التزهد، ونهج سبيل التصوف، فوطده على أساس الحكمة، وأيده بحقائق العلم. ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية؛ وعزم الرحلة إلى مراکش ليلقى الأمير يوسف ابن تاشفين، فجاءه نعيه قبل سفره فعاد إلى طوس واشتغل بالتعليم والتأليف. ثم اضطر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية، ولكنه ما عتم أن يرجع إلى وطنه فابتنى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله.

مؤلفاته

ألف الغزالي كتاب البسيط والوسيط والوجيز في فقه الشافعي، وكتاب إحياء علوم الدين في التصوف، وهو مرتب على أربعة أقسام: العبادات والعبادات والمهلكات والمنجيات. وقد قيل في فضله: " لو ذهبت كتب الإسلام وبقي (الإحياء) لأغنى عما ذهب " وله كتاب تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم، وقد طبع أخيراً بمصر، وكتاب مقاصد الفلاسفة في الموضوع نفسه.

ابن رشد

(551 - 595 هـ)

نشأته وحياته

هو الوليد محمد ابن أحمد ابن رشد، ويسميه الفرنج (averroes) ولد بقرطبة من بيت عريق في المجد أصيل في القضاء، وتخرج على علماء عصره في الفقه والطب والفلسفة، وانقطع إلى النظر في الحكمة حتى توسط باحتها وشارف غايتها. وفي سنة 548 قدمه ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن وكان محباً للفلسفة، فلخص له كتب أرسطو. ثم تولى قضاء إشبيلية سنة 515 ورجع إلى موطنه بعد عامين، وشخص منه إلى مراكش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذه طبيباً له، ولكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضياً. ولما مات أبو يعقوب وخلفه والده يعقوب المنصور أقر ابن رشد في مقامه، وبالع في إكرامه، ولكن الدهر أبى أن ينعم بال الحكيم فسعى به أعداؤه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق، فنفاه هو وسائر الفلاسفة من أرضه. ثم عاد الأمير إلى نفسه فاستدعاه إلى مراكش واعتذر إليه، وظاهر نعمته عليه. ولكن ما لبث أن ليقه حمامه بمراكش.

فلسفته وكتبه

لو صح التناسخ لقلنا إن روح أرسطو تقمصت جسم ابن رشد لتجدد عهود الحكمة، وتفسر غموض الفلسفة. فإن حكيم العرب تعصب لحكيم اليونان، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبعد غاياته. فوقف نفسه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه. واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه، فكان أساساً لحكمتهم ونبراسا لنهضتهم وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسي (إرنست رينان) في كتابه ابن رشد ومذهبه: " إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو، ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول ". ومذهب ابن رشد وأشياعه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالحلول: فيزعمون أن المادة أزلية، وأن الخلق حركة اضطرارية في هذه المادة، والخالق هو تلك

الحركة أو المحرك. ويرون أن المخلوقات تشارك المادة في أزليتها لكونها منها. فإذا تجرد الإنسان العاقل لتحصيل العلم توصل بالتدريج إلى الاستغراق في الله؛ وأن العقول واحدة في البشر ترجع جميعها إلى العقل الأول الذي يسمونه (العقل الفاعل)، وهذا العقل العام هو وحده متصل بالله دون العقول الفردية، فيترتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لا خلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب، وأن الخالق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد فند هذا المذهب حجة الإسلام الغزالي وكثير من علماء أوروبا. على أن ابن رشد كان يحرص الحرص كله على التوفيق بين الفلسفة والدين. فكتب في ذلك كتابه "فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال"، وكتاب "مناهج الأدلة في عقائد الملة"، وعنى بالرد على "تهافت الفلاسفة" للغزالي بكتاب سماه "تهافت التهافت" يقول في آخره. "لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت في ذلك" وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات في الطب، وفلسفة أرسطو، وقد فقدت أصول كتبه فلم تبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية.